الفصل الثاني

السلطان محمد الفاتح وولده بايزيد الثاني

الآن نصل إلى شخصية عملاقة قلّ أن يجود الزمان بمثلها، إنها شخصية محمد بن مراد الذي يطلق عليه لقب الفاتح، فاتح مدينة القسطنطينية التي استعصت على أجداده، ففتحها الله على يديه لتكون للإسلام منارة، وأي منارة.

لقد حوصرت المدينة سبع مرات، وفي المرة السابعة حاصرها قائد الخليفة الرشيد العباسي سنة ١٨٢هـ/ ٧٩٨م، لكن لم يفتحها إلا محمد الغازي بن مراد.

لقد قضى بفتحها على الشوكة المعادية للإسلام، وكان سقوط القسطنطينية باعتراف المؤرخ الإنكليزي ستانلي لين بول في كتابه الممالك المحمدية سجلاً للانتصارات وسقوطاً لبقايا الإمبراطورية البيزنطية.

تولى محمد السلطنة وسنه إحدى وعشرون سنة في عام ١٤٥١م/ ٨٥٥هـ، ورث عن أبيه الشجاعة وسعة الحيلة والصبر على المكاره والمعرفة التامة بقيادة الجيوش وحصار الدول والدهاء في وضع خطط الحرب.

نشط محمد إلى إتمام فتح ما بقي من بلاد البلقان، وإلى تحصين مضيق البوسفور، ثم انصرف إلى حصار القسطنطينية جمادى الأولى ١٨٥٧هـ أوائل ١٤٥٣م، براً بمئتين وخمسين ألف جندي، وبحراً بمئة وثمانين سفينة حربية مزوّدة بالمدافع.

سارع سلطان القسطنطينية الرومي قسطنطين بالاستنجاد بأوربا، فلبى أسطول جنوة النداء، وهزم الأسطول العثماني، لكن تمكن العثمانيون من اقتحام المدينة في جمادى الأولى سنة ٨٥٧هـ الموافق مارس سنة ١٤٥٣م، وتم تسمية المدينة إسلامبول أي مدينة الإسلام.

صارت إسلامبول عاصمة الدولة العثمانية، وانتشر الإسلام في ربوعها.

والطريف أن معاوية بن أبي سفيان حاصر المدينة سنة ٣٤هـ/ ٦٥٤م، كما حاصرها ابنه يزيد سنة ٦٦٧م/ ٤٩هـ، وحاصرها سفيان بن أوس في خلافة معاوية سنة ٦٧٢م/ ٥٢هـ، وحاصرها هشام بن عبدالملك سنة ١٢١هـ، وحاصرها قائد الرشيد سنة ١٨٢هـ/ ٧٩٨م.

وها هو السلطان محمد يدخل المدينة ويمنع جنوده من أن يعيثوا فيها فساداً، ويأمر بتحويل كنيسة أيا صوفيا إلى مسجد يؤذّن فيه للصلاة وتقام فيه. ويعيد بناء ما تهدم من أسوار المدينة، ثم يقصد بلاد المورة لفتحها،

لكنها دفعت الجزية، ثم يعقد أمير الصرب الصلح مع السلطان على الجزية السنوية، ثم يتم فتح بلاد الصرب سنة ٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م. وفتح كورنثة وما جاورها من بلاد اليونان، وكثير من جزائر بحر الروم، ثم يجرد السلطان حملة ضخمة لتأديب أمير الأفلاق الذي تعدى على التجار العثمانيين، فتصل الحملة إلى بوخارست عاصمة دولته، وتهزم الأمير، فيفر هارباً، فضم السلطان بلاد الأفلاق (رومانيا) إلى الدولة العثمانية.

واشتعلت الحروب بين العثمانيين والبنادقة ردحاً من الزمن، فافتتح العثمانيون عدداً من الجزر في البحر المتوسط سنة ١٤٧٠م، ثم استولوا على إمارة القرمان، وهزموا جيش التتار بقيادة أوزون حسن خليفة تيمورلنك بعد عام.

واضطر البنادقة إلى عقد الصلح مع السلطان محمد سنة ١٤٧٩م/ ٨٨٤هـ، ثم انطلقت القوات العثمانية إلى بلاد المجر، ولكن لم توفق إلى فتحها فانطلقت إلى مدينة أوترانت الإيطالية واستولت عليها بعد سنة، ثم حاصرت جزيرة رودوس، لكن السلطان محمد توفي ولم يفتحها، وذلك في ٤ ربيع الأول سنة ٨٨٦هـ.

تولى ولده بايزيد الثاني الحكم، وكان وقتها حاكماً بـ (أماسيا)، وكان ميالاً للسلم، لكن حين دعاه داع الجهاد انبرى بهمة عظيمة وتصدى لأخيه

الأمير جم الأصغر، الذي طمع بالانفصال عن الخلافة، حاربه بايزيد وهزمه قرب مدينة (يكي شهر) سنة ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م، لكنه فرّ واستعان بحاكم رودس النصراني على أخيه بايزيد، ولم يستطع فعل شيء وتوفي في مدينة نابولي سنة ١٤٩٥م/ ٩٠١هـ.

وفي عهد بايزيد الثاني بدأت العلاقات مع الروس، فوصل أول سفير روسي إلى إسلامبول ومعه هدايا للسلطان وحصل على امتيازات من الدولة للتجار الروس، وكذلك توطدت العلاقات مع مملكة بولونيا، ووصلت الحال بابنه سليم إلى أن أعلن نفسه سلطاناً على أدرنة، ولم يلبث بايزيد أن تنازل له عن السلطنة سنة ١٥١٢م/ ٩١٨هـ، ثم توفي بعد عشرين يوماً، وبدأ نجم سليم الأول العثماني الذي تسمى بالقاطع في البزوغ في سماء المجد .